سمات التداول وفاعلية التأثير في الحديث النبوي الشريف

نموذج التحليل : حديث فضل العلم والعلماء

الدكتورة : نوال بومعـزة

قسم اللغة العربية
كلية الآداب والحضارة الإسلامية
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية.
- قسنطينة -

ملخص الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى تطبيق آليات وإجراءات التداولية على حديث نبوي شريف يتعلق بطلب العلم، وإيجابيات الرحلة العلمية. وسيعتمد التحليل على استعمال مصطلحات التداولية:

- أفعال الكلام.
- الملفوظية.
- الحجاج.
- التفاعل و السياق.

ومن خلال ارتكاز الحديث النبوي الشريف على هذه المنظومة فإنـــه بذلك يتحـوّل إلى مادة خام تستقبل آليات المناهج النقدية المعاصرة ، وتؤكد على فكرة أنّ الحديث النبوي الشريف خطاب تداولي صالح لكل زمان ومكان.

Abstract:

The aim of this study is to try to apply the mechanisms of and the pragmatic methods on a prophetic saying concerning the acquisition of knowledge and the benefits of the scientific trip.

This analysis will be done through the use of a pragmatic terminology:

- Acts of language,
- The saying,
- The argument,
- Interaction and context.

The prophetic saying based on the criteria mentioned above, then becomes a raw material for studies making use of contemporary critical processes, confirming the idea that the prophetic saying is a pragmatic discourse appropriate for any time and in any location.

مقدمـة

اعتمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في إرسال خطابه على عملية التلفظ، مراعيا في ذلك الخصائص الداخلية والخارجية المتحكمة في عملية الإرسال.

نحاول من خلال هذه الدراسة تطبيق آليات وإجراءات المقاربة التداولية على حديث نبوي شريف في محاولة للتأكيد على الخصوصية الخطابية للأحاديث النبوية الشريفة الصالحة لكل زمان ومكان.

كما نحاول من خلال هذه الدراسة إبراز الجانب التداولي في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خلال الإجابة عن أسئلة هامة من مثل: من مرسل الحديث؟ أي من يتم عملية الإرسال؟ فحوى الرسالة؟ متى وأين تتم عملية الإرسال ؟ فالتداول هو في الحقيقة

التواصل الفعّال الذي يعبّر عن الغرض ويبلغ المقصود بسهولة ويُسر، أي إصابة المعنى من أقرب مرمى بلغة علماء العرب القدامى.

إنّ الجانب العلمي النفعي جانب حاسم في الحديث النبوي الشريف، يهدف الرسول (صلى الله عليه وسلم) إلى إيجاد المرونة اللازمة مع المواقف المختلفة ، ممّا يتطلّب شحن خطابه بالقيم والتفسيرات المطلوبة لنشر تعاليم الدين الإسلامي ، وتوجيه المسلم توجيها عقديا وتربويا وأخلاقيا.

1-التداولية : خطاب ما بعد الحداثة.

يصطدم الباحث عن مفهوم التداولية بكمّ هائل من المجالات العرفية والفكرية التي تتدخّل في تحديدها، فعدت ملتقى لمصادر أفكار فكرية وفلسفية مختلفة، فمِن" الصعب الحديث عن التداولية ، لأنّ هذا التعبير يُغطّيه العديد من التيارات من علوم مختلفة ، تتقاسم عددا من الأفكار.. واللسانيون ليسوا وحدهم المعنيين بالتداولية ، بل تعني الكثير من علماء الاجتماع والمناطقة ، وتتجاوز اهتماماتها بمجموع الأبحاث المتعلقة بالمعنى والتواصل ، وتطغى على موضوع الخطاب لتصبح نظرية عامة للنشاط الإنساني "[1].

شكّل ظهور كتاب فرانسواز ارمينغو عن التداولية سنة **1985**، حدثا هامًا فتح العديد من الآفاق للدراسات والبحوث؛ حيث تقع التداولية :" كأكثر الدروس حيوية في مفترق طرق الأبحاث الفلسفية واللسانية "[2] ، فأصبحت بذلك مركزا لاهتمامات المناطقة والفلاسفة، والسوسيولوجيين والسيكولوجيين والبلاغيين ودارسي اللسانيات وعلماء التواصل، فهي لا

[1] – خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، الجزائر ، ط2، 2012، ص 52 ، عن :

- Introduction aux lectures de D. maingueneau : l'analyse du discours, l'archive, Hachette , paris , 1991 , p170.

[2] – فرانسواز ارمينكو، المقاربة التداولية، ت. سعيد علوش، مركز الإنماء القومي، الرباط، المغرب، 1986، ص07.

تهتم من حيث الدراسة بجانب واحد ، بل تستوعبها جميعا ، فتعدّدت بذلك التسميات العربية المقابلة للمصطلح الأجنبي Pragmatique ، فقيل :

البراغماتية ، والبراغماتيك وقيل التداولية ، والمقامية والسياقية ، والذرائعية ، وتُعدّ دراسات الناقد المغربي أحمد المتوكّل أُولى إرهاصات التداولية في الوطن العربي ؛ حيث تمحورت أبحاثه حول: الوظائف التداولية في اللغة العربية 1985 ، فكانت الدراسة مساهمة تداولية نحوية .

تعتمد التداولية في تكوين درسها على مجموعة من القضايا والموضوعات تعكس العلاقة الوطيدة بينها وبين اللسانيات ، وترتكز بالخصوص على المقام الذي تحدث فيه الخطابات وعلاقة العلامات بمستعمليها والمؤوّلِين لها والوضع الذي ينطلقون منه بما يشمل اللغة والثقافة. هذا وتشهد التداولية توّسعا على جميع الأصعدة، فهي مفيدة لوصف ظواهر التناسق النصي، كما غزت آلياتها مجالات السيميائية، ومجال التعليم، واهتمت بالمتعلّم و مقام التبليغ.

2-ملامح التداولية في الفكر النقدي العربي القديم.

إنّ الحتمية التاريخية تقتضي منّا البحث في التراث العربي عن ملامح الدرس التداولي الغربي الحديث ، فقد حفلت الدراسات اللغوية العربية القديمة بالسامع ، و" بيان دور المتكلم في صياغة الخطاب وإنتاجه ، والإلمام بكل العناصر الفاعلة في الإبلاغ ، ومعيار الصدق والكذب في الأساليب وفي الشعر ، والمطابقة مع الواقع وعدمه ، ذلك أن دراسة اللغة في التراث العربي ، ميزتها بعض السمات التي هي من أهم المبادئ التداولية الحديثة"[1].

[1] – محمد سويرتي ، اللغة ودلالاتها ، تقريب تداولي للمصطلح البلاغي ، مجلة عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت ، مج 28 ، ع3 ، مارس ، 2000، ص 30.

كانت أفكارهم بمثابة التفكير التداولي الأول " فالنحاة والفلاسفة المسلمين، والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يذِيع صيته بصفته فلسفة وعلما ، رؤية واتجاها أمريكيا وأوروبيا ، فقد وظّف المنهج التداولي بوعي في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوّعة "[1] . فتتعدّدت بذلك مصادر التفكير التداولي اللغوي عند العرب ، بين النحو والبلاغة، والنقد ، والخطابة ، وأصول الدين ، ودرس القران الكريم بوصفه خطابا متكاملا مثلما نجده عند السكّاكي في كتابه مفتاح العلوم ، ودلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني.

3- الحديث النبوي المختار للتطبيق .

عن أبي الدرداء رضي الله عنه ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سلك طريقا يطلب فيه علما ، سلك الله به طريقا من طُرُقِ الجنّة ، وإِنَّ المَلاَئِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ العِلْمِ . وَإِنَّ العَالَمَ لَيَسْتَغفِرَ لَه مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ ، والحِيتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ . وإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى العَابِدِ كَفَضْلِ القَمَرِ ليلة البَدْرِ على سائر الكواكب ، وإِنَّ العُلماء وَرَثَةَ الأَنْبِيَاءِ ، وإِنَّ الأَنبياء لَمْ يُورِثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا ، وإِنّما وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظّ وَافِر" [2].

4-الحديث النبوي الشريف : خطاب عملي وفكر مرن.

تتوّفر الأحاديث النبوية الشريفة على المنظومة الاصطلاحية للمقاربة التداولية الحديثة، وهذا باعتبار أنّ النصوص والخطابات هي التي تستدعي المناهج والمقاربات النقدية ، لذلك يمكن دراسة الحديث النبوي الشريف الشريفة من الجوانب الآتية:

أوّلا – منتج الخطاب ومرسله.

[1]- المرجع السابق، صص 30 ، 31.

[2] – رواه الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي في المقدمة، باب فضل العلم والعالم ، رقم 354.

أوْلت التداولية الحديثة اهتماما كبيرا لعنصري المتكلم والمخاطب بحكم :" أنّ الخطاب مُوجّه (من وإلى) أحد الطرفين فلا يمكن فهم الخطاب دون استحضار صاحبه وكذا الموّجه إليه، فهما يعتبران ركنيين أساسيين ومظهريين مهمّين في الحالات التكلّمية "[1] . شكّل الرسول صلى الله عليه وسلم الذّات المحورية التي تنتج الحديث النبوي السابق الذكر ، فهو الذي تلفّظ بها من أجل التعبير عن مقاصده، وقد بيّن قدرة لغوية فائقة في تحديد كل موضوع ، فالعلم والصدق والنصيحة مواضيع إنسانية جوهرية تصُبّ في مصلحة الفرد والمجتمع ، وفي اجتماعها تحقيق للمنفعة ، وإنجاز للحضارة والرّقي بالذات الإنسانية نحو الجمال والحق.

تنطلق هذه الأهداف من ذات متكلّمة حكيمة، مؤدية من العليم الحكيم، بما أنزل عليه من آيات الكتاب المبين ، فكان تكوينه خير تكوين، وتثقيفه أول تثقيف، يعرف متى يتكلم، ومتى ينتقي الكلام ، متى ينصح؟ متى يُحذّر، متى يضرب الأمثال والحكم، ومن يستعمل أسلوب الإشارة غير اللغوية لإصابة المعنى من أقرب مرمى، " فصدرت منه آيات بيّنات، وحكم خالدات ، وعبارات في الأدب، كان لها شأن بعيد ، وأثر حميد في تربية النفوس وإصلاحها، وتقويم الأخلاق وتهذيبها.. "[2]. يعبّر الحديث النبوي الشريف عن فكر الرسول صلى علبيه وسلم وكذا قدرته على البناء ، فهو المُوجّه باعتماده الفعل التوجيهي الإنجازي، الذي تحكمه أساليب النهي النداء والأمر. توّظف هذه الأدوات لتأكيد الدور الرّيادي للرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو يمتلك السلطة الدينية ، وتعدّ السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن.

---

[1] – طه عبد الرحمان ، البحث في اللساني والسيميائي، الدلاليات والتداوليات ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس ، المغرب ، ط 1، 1995، ص 302.

[2] – محمد عبد العزيز الخولي، الأدب النبوي ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ، لبنان، ط1، 2004 ، المقدمة.

راعى الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه عن العلم مقام الخطاب وأحوال السامع، وأشكال إلقاء الخبر، وأنماط الطلب التي ينشئها، وما إلى ذلك من ظروف الحديث؛ حيث ارتكز الرسول صلى الله عليه وسلم على مفهوم تداولـي يسمى الملفوظية L'enonciation ، فالحديث الشريف ممارسة لغوية اضطلع بها الرسول الكريم. تعمل ملفوظية الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) على تفعيل الخبرة الذاتية، فمن خلال الحديث النبوي المختار ، حملت هذه المقولة ثلاثة خصائص أساسية[1] ، وهي:

- بروز المتكلم الأنا من خلال استخدام اللغة، ممّا يسمح لها بالمرور من الحالة الافتراضية إلى ما يتطلّبه الموضوع.
- موافقة الملفوظية وفق لما يريده المتكلم.
- نتيجتها أن الخطاب يسمح بوصف العالم وتقرير الحاجات المرجعية .

ثانيا – لغة الحديث النبوي الشريف (الخطاب).

يعدّ الحديث النبوي الشريف موضوع التحليل خطابا دينيا مقدّسا بالنسبة للأمة العربية المسلمة، فهو ركيزة أساسية من ركائز التشريع الإسلامي، فالحديث النبوي الشريف هو ما ورد عن الرسول محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) من قول أو فعل أو تقرير.

يشتمل الحديث النبوي الشريف السابق الذكر على مادة لغوية قابلة للمعالجة، فهدف اللغة في الحديث هدف تواصلي يعبّر عن معاني ، ويهدف إلى تحقيق مقاصد نفعية تصبّ في الصالح العام ، فالحديث المنتقى يخدم الجميع ، فهو في صلب موضوع أساسي وجوهري ألا وهو العلم وهو من الأحاديث النبوية الشريفة التي تزخر بها السنة النبوية ، فللعلم منافع عديدة لا تحصى ولا تعد ، والحديث في مجمله ضمّ القواعد الصحيحة لتحصيل العلم ، وبيّن

[1] - خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية ، ص 84 ، عن :

- Jean caire : esthétique de la communication , p 96.

المكانة العظيمة التي أعطاها الدين الإسلامي لطالب العلم، وبالتالي يتّشكل الحديث المحفز لطالب العلم إطارا واسعا تجتمع فيه أنماط كثيرة من البُنى الثقافية والنفسية والاجتماعية والمعرفية من تلك الأنماط:

- ضمّ الحديث النبوي الشريف جملة من المتتاليات السردية خضعت لأفعال الكلام les actes de language منجزة غرضها إحداث عملية التواصل بتوفير العبارات الإنجازية أو الأدبية الآتية.
- التعميم أثناء الحديث في قوله (صلى الله عليه وسلم) من سلك طريقا يطلب فيه علما ، فكل سالك لتحصيل العلم مجتهد فيه يدخل في عموم الحديث وتنطبق عليه أحكامه ، سواء بلغ درجة العلماء أو لم يبلغ، فهو موعود بالجزاء والفضل.
- التأكيد على النتيجة : في قوله سلك الله به طريقا من طرق الجنة ، فالفعل الانجازي دخول الجنة " هو ما تؤكد النتيجة التي يصل إليها كل طالب للعلم، فالعلم هو الذي يعرّف صاحبه بربه سبحانه وبحقوقه، وكل هذا يقود إلى مرضاة الله سبحانه وتعالى ويوصل إلى الجنة، إذن فالجنة نتيجة نفعية ينتظرها كل طالب للعلم.
- وإنّ الملائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم[1] .

يأتي في هذه الوحدة السردية أسلوب التفضيل، فاختيار الأفضل هو مبتغى الرسول (صلى الله عليه وسلم) حيث نجد في ذكر هذه الصورة أثر الحكمة النبوية ، فالملائكة تتواضع لطالب العلم ، فتخفض أجنحتها تواضعا له وتوقيرا وإكراما لما يحمله من ميراث النبوة.

- وإن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء.

[1] – اعتمدت في شرح معاني هذا الحديث على محاضرة الدكتور : صالح بن سعيد عمار ، مادة الحديث التحليلي ، قسم الكتاب والسنة ، كلية أصول الدين ، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة ، 2012 – 2013 .

يسترسل الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) في تفصيل صور الجزاء فيستعين بأكبر قدر ممكن من الأساليب الإقناعية أو ما يُعرف في التداولية بالحجاج argumentation وهو " جانب أساسي من أجل ترجيح خيار من بين خيارات قائمة وممكنة، إزاء الوضع الذي كان قائما"[1] من أهم غايات الحجاج " استمالة المتلقي لما يعرض عليه، وأن يجعل العقول تدعى لما يطرح عليها ، وأن يزيد في درجة إذاعتها باعتماد وسائل التأثير في عواطفه وخيالاته وإقناعه "[2]، فلما كان العلم به نجاة النفوس وسعادتها ، ونجاة العباد على يدي العلماء وطلبة العلم ، كان من في السماوات ومن في الأرض من الملائكة والحيوان، والطير والحيتان يستغفرون له ، فسعادة الإنسانية تقوم على محور صورة الجهل الذي وإن انتشر في الأوساط إلا وحمل معه كل ظواهر الانحطاط والفساد، فلا يسلم منه إنسان ولا حيوان ولا جماد.

وتتواصل صور الإقناع من الرسول (صلى الله عليه وسلم) في قوله :

- وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، فيأتي أسلوب المقارنة التفضيلية باستعمال التشبيه ، فجعل فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وفيه تشبيه مطابق لحال القمر والكواكب، فالإضاءة واحدة ، ونور العلم ممتد في أقمار العالم ، فالعابد لا يعرف أمورا كبيرة فيما يتعلق بالعبادة ، وهذا النقص

[1] – خليفة بوجادي ، في اللسانيات التداولية، ص 86.

[2] – م، ن ، ص ، ن.

يكمّله العالم بعلمه وشرحه للأحكام والعبادات ، فإذا مات العلماء ، تحيّر الناس ، ودخلوا في دائرة التيه والضياع.

يعتمد الرسول (صلى الله عليه وسلم) في تقديم هذه الصور على الحجاج الاستدلالي الذي يعتمد على البرهنة والبلاغة والعقل غايته بيان الحق، ووفقا لهذه المقارنة التفضيلية يمكن الحصول على:

العابد = الكوكب

العالم = العمر

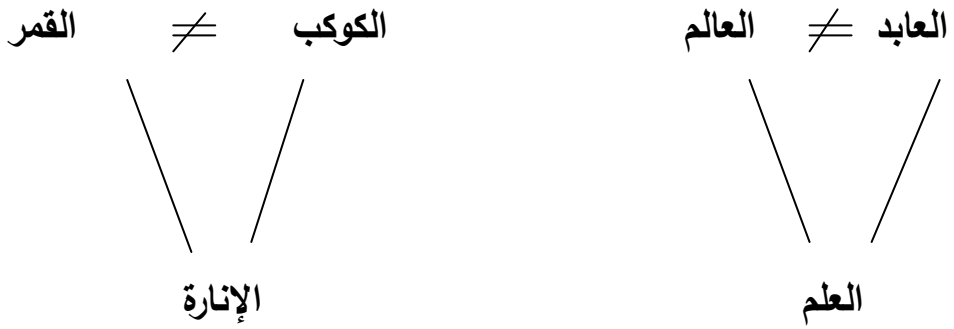

فتتزّين السماء بالقمر والكواكب ، فإذا خسف القمر اختفت الكواكب ، والحال ينطبق على الأمة الحقيقية التي تبنى بالعلم ، وتجعل من سنة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وعلمه المثال الحقيقي للتقدّم والتفقه في الدين ، وهذا ما يؤكد حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قال :

" مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء وانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجاذب أمسكت الماء فنفع الله بها

الناس ، فشربوا منها وزرعوا . وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ. فذلك مثل من فقعه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[1].

تتحقق منافع العلم بجوانبه الإيجابية لذلك يسترسل الرسول (صلى الله عليه وسلم) في عرضه لصور المشابهة مصرّا على إيصال قصده عند تجاوز الفعل ، وعلى حصول أقصى مقتضى خطابه، والتأكيد على أنّه لا يتوانى عن تعقب خطابه والتمسّك بمدلوله.

– أمّا قوله " وإن العلماء ورثة الأنبياء ، فهو خطاب إقناعي بأسلوب تحفيزي محكم ، يدفع بكل طالب علم إلى الاجتهاد للوصول إلى النتيجة النفعية وهي وراثة الأنبياء في مناقبهم ، وأخلاقهم وأهدافهم السلمية الإنسانية . فالأنبياء خير خلق الله ، والعلماء أحق من يقوم مقام الأنبياء ، وأحق الناس بميراثهم .

استعمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) إستراتيجية إقناع تعتمد على التأثير القوي في المرسل إليه قصد إثبات نتائج أكثر، فمثل هذه الحجج لا يشوبها لا فرض ولا قوّة، فالمرسل " عندما يطالب غيره بمشاركته اعتقاداته ، فإن مطالبته لا تكتسي صبغة الإكراه، ولا تندرج على منهج القمع ، وإنما تتبع في تحصيل غرضها سبلا ، استدلالية متنوّعة تجرّ الغير جرّا إلى الإقتناع برأي المحاور ، وقد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الامتاع من قوّة في استحضار الأشياء ، ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين، "[2] وتتحقق منفعة الوراثة في قوله : فمن أخذه أخذ بحظ وافر، فيحضر أسلوب الترغيب ، فمن أخذ بالعلم وهو ميراث النبوّة، فقد أخذ بحظ وقسط وافرين ، ذلك أن أعظم الحظوط وأجداها ما نفع العبد

[1] - رواه البخاري في كتاب العلم /باب : فضل من علم وعلّم ، رقم 79.

[2] طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط2، 2000، ص 38.

ودام نفعه ، وهي الرفعة الحقيقة كما قال الله تعالى :" ويرفع الله الذين امنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات " ،[1] فاعتمد الرسول (ص) المبدأ الإقناعي ممثلا في "بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها واشتغالها داخل الخطاب "[2] . لقد ألمّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) من خلال هذا الحديث بشروط الحجاج القائم على المحاورة ومراعاة طبيعة المخاطب، " فالحجاج في النهاية ليس سوى دراسة لطبيعة العقول ثم اختيار أحسن السبل لمحاورتها والإصغاء إليها ثم محاولة حيازة انسجامها الايجابي والتحامها مع الطرح المقدّم، ، أما إذا لم توضع هذه الأمور النفسية والاجتماعية في الحسبان ، فإن الحجاج يكون بلا غاية وبلا تأثير "[3]، فالتشكيل اللغوي المميّز للحديث النبوي الشريف هو الوسيلة الإقناعية المعتمدة على تتابع الأقوال ، وترابطها بشكل دقيق ومباشر.

عرض الرسول (صلى الله عليه وسلم) جملة من الصور التي يقبلها العقل والمنطق، فطلاب العلم والشغوفين به هم المقصودون بفحوى الخطاب ، وهم المطالبون بإنجازه . لقد ارتكز الحديث النبوي السابق الذكر على آلية من آليات البلاغة العربية وهي إلية التمثيل ، فتعقد صلة بين صورتين ليتمكن المرسل من الاحتجاج وبيان حججه ، وهذا ما أكدّه الناقد عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة :" واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورها الأصلية إلى صورتها ، كساها بهالة ..ورفع من أقدارها.. وضاعف قوامها في تحريك النفوس لها ، فإن كان مدحا أبهى وأفحم ، وإن كان حجاجا كان برهانه أنور، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر.."[4] وقد كانت بلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وصور التمثيل البيان الأبهر لملكته اللغوية الثرية والمتنوّعة.

---

[1] سورة المجادلة ، الآية 11.

[2] أبو بكر الغراوي ، الحجاج واللغة، العمدة في الطبع ، ط1، 2006، ص 14–15 .

[3] عبد الله صوله، الحجاج ، أطره ومنطلقاته من خلال مصنف في الحجاج الجديدة ، ص 301.

[4] عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة، تحقيق محمد الفاظلي ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط2، 1999، ص 88.

ثالثا– مقام الحديث النبوي الشريف.

نعني بالمقام أو حال الخطاب مجموعة من العوامل التي تحيط بالكلام وتساهم في إيضاحه، وتساعد على فهمه وتفسيره، فكل كلام يتم إحداثه عن قصد يجد ما يبرره في شخصيتي المتخاطبين للإفهام والفهم، أي للإفادة، والدور الذي تلعبه القرائن المقالية والحالية في معرفة استعمال الأحاديث حسب مقتضيات ظروف التواصل وتنظيمها واستثمارها في وحدات لغوية تحدث فعلا في أحوال معينة للتعبير عن مقاصد معينة.

لهذه الأسباب اهتم محللو الخطاب بعلاقة السياق بالمقام، فالعلاقة من العناصر الأساسية المساهمة في تكوين الخطاب، إذ تعد نظرية السياق منهجا لدراسة المعنى لما تميّزت به من اهتمام بالعناصر اللغوية والاجتماعية.

لقد اتسع مفهوم السياق ، وأصبح مصطلحا شائعا في الدرس اللغوي الحديث ، وتجاوز النقاد المفهوم العام له بوصفه ما يسبق أو ما يلحق لفظا أو وحدة لإبراز معناها، وتطوّر مفهومه وبخاصة في الدراسات التداولية ، حيث أصبح يحوي كل " الظروف الاجتماعية التي يمكن أن تؤخذ بعين الاعتبار في دراسة العلاقات بين الموقف والموقف اللساني .. ونقول أيضا السياق الموقفي أو سياق المقام وهما المعطيات المشتركة بين المرسل والمتلقي حول السياق الثقافي والنفسي ، الخبرات ومعارف كل واحد منهما "[1].

لقد أحاطت العديد من الظروف الخارجية بحديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) منها الاستهلال الذي أورده الإمام أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمان الدارمي (255هـ) : "أخبرنا نصر بن علي الجهضمي حدثنا عبد الله بن داود الحريبي عن عاصم بن رجاء بن حيوة عن داود بن جميل عن كثير بن قيس ، قال :

---

[1] Jean Dubois et autres : dictionnaire de linguistique ; Larrousse ; paris,paris ; 1988, p 120.

" كنت جالسا مع أبي الدرداء في مسجد دمشق ، فجاءه رجل فقال : يا أبا الدرداء ، إني جئتك من مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، لحديث بلغني أنك تحدثه عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .." ثم يذكر أبو الدرداء رضي الله عنه باقي الحديث الشريف عن فضل العلم ومرتبة طالبه، فالحديث بقصته يمثل الرحلة في طلب العلم، فهذا رجل طالب علم يرحل من المدينة النبوية إلى دمشق الشام لأجل سماع حديث واحد، فحدثه أبو الدرداء رضي الله عنه بالحديث المناسب للمرحلة العلمية الشاقة، فمن تمثل سير سلفنا الصالح ونظر في معاناتهم في طلب العلم هانت عليه كل شدّة، فقد كابدوا من الصعاب ما يفوق التخيّل، وتركوا البلاد والأولاد ، وهجروا اللذات والشهوات وجابوا الأرض مشارق الأرض ومغاربها ، سعيا وراء حديث واحد أو لقاء شيخ أو معرفة مسألة ، وأكدذ هذه المسألة ابن خلدون في المقدمة :" إن الرحلة في طلب العلوم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم، والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب والفضائل، تارة : علما وتعليما ولقاء، وتارة : محاكاة وتلقينا بالمباشرة . إلاّ أنّ حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشدّ استحكاما وأقوى رسوخا ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات. ورسوخها وتفتحها".

يتجسد البعد التداولي في الحديث الشريف من خلال استخلاص الفوائد التي تحققها رحلة طلب العلم كتحصيل المعرفة الحقيقية لمعنى الصبر ، وفي هذا الصدد قال الإمام الشافعي ، رحمه الله: " حق على طلبة العلم بلوغ غاية جهدهم في الاستكثار منه، والصبر على كل عارض دون طلبه، وإخلاص النية لله تعالى في العون عليه ". والترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم ، فالعلم يُؤتى ولا يأتي.

رابعا- وضع الخطاب .

تكمن أهمية التداولية في محاولتها الإجابة عن أسئلة كثيرة ومتنوّعة تتعلق بالمتكلم والسامع، ومنظومات التواصل والتفاعل وشروط الأداء . يحمل مفهوم وضع الخطاب

العلامات الخصوصية المشتركة بين المتكلم والمخاطب ، كما يحمل جملة الظروف والوضعيات التي نحن في حاجة إليها، من أجل فهم وتقييم ما يُقال، فتؤدي بذلك اللغة في الحديث النبوي الشريف وظيفتها الاجتماعية ، ويتم إنجاز الفعل في السياق، فاللغة هي القاعدة المشتركة بين الطرفين، و الرسول الكريم (صلى الله عليه وسلم) بنى خطابه على أساس نظام اللغة العربية، فالحديث الشريف ألقي باللغة العربية ممّا عزّز حبل التواصل بين المتكلم والمخاطب وأدّى إلى التجاوب مع الحديث وفهم محتواه، فموضوع الحديث هو العلم ورحلة طالب العلم وهو الموضوع المبتغى من قبل السائل عن هذا الحديث.

عمل الرسول (صلى الله عليه وسلم) على لغة مسترسلة تحمل رؤية متكاملة لا يستقل فيها الشكل عن المضمون، ولأن البلاغة شعبة من شعب التواصل، فقد قامت بلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم) على مبدأ التواصل، واستخدام اللغة استخداما سليما، يضمن وصول المعاني إلى المخاطبين، كما هي في نفوس المتكلمين، بحسب اختلاف أحوالهم ومقاماتهم ، وهذا ما يسمى بالسياق النفسي.

وفي السياق ذاته أيضا ذكر أبو هلال العسكري :"" وينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين، وبين أقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مقاما، حتى تقييم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات. واعلم أن المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال".

إذن ، ومن خلال ما سبق ذكره، يمكن القول أن بلاغة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تجسّدت في عدم الإجهاد والسهولة في القول ، فتنوعت السياقات في حديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، فكانت رحلة طالب العلم الوظيفة المحورية في الحديث المختار، وموضوع طلب العلم ومراتبه الوظيفة البؤرة، فهذه الجولة القرائية لحديث واحد فقط، قادتنا إلى أن الحديث النبوي الشريف خطاب شكّل وحدة تواصلية بلاغية مبنية على إستراتيجية لغوية

ونفسية محكمة النسيج. حقق من خلالها الحديث النبوي الشريف جملة من الأهداف كان الترغيب في طلب العلم أهمّها، فوجّه المنفعة في الحديث النبوي الشريف يكمن في تحقيق ما فيه خير ومنفعة للناس، وهذا باستعمال الرسول الكريم لإستراتيجية الإقناع المبنية على الخطاب الحجاجي الذي يتوّسل الصور الحسية القائمة على التمثيل والموازنة والاستعارة، حيث تهدف هذه الاستعمالات إلى تنويع الأساليب وتجميلها، مما يُقرّب المرسل إليه والزيادة في التأثير عليه وبالتالي إقناعه بمضمون الحديث، وهذا على الكفاءة اللغوية والتداولية للرسول الكريم عليه أفضل الصلاة أزكى سلام.